﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٣٢﴾ [يونس: 32]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد إقامة الحجج على المشركين حكم الله بأن لا ربَّ ولا حقَّ سِواه

بعد أنْ بيَّن القرآنُ فسادَ معتقداتِ المشركين وما سيلقونَهُ مِنَ الجزاء، وقفَّى على ذلك بإقامة الحُجَج عليهم في إثبات التَّوحيد والبعث بقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أردفَ ذلك بإثبات منهجِ اللّه الرّبِّ الحَقِّ، فقال سبحانَه: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُصۡرَفُونَ﴾: الصّرف: رَجْعُ الشّيء[2]، وصَرَفَ الشّيء عن وَجْهه: ردَّهُ فانصرف، وصَرَفَ الشَّيء: أَعْمَله في غير وجهه، كأنّه يَصْرفُه عن وجهٍ إلى وجه، وكلُّ (صَرَفَ) فيه معنى التّحويل، والحَرْفُ الذي تُعدَّى به يوجّه المعنى، والصّرف: الميل والتّقلُّب والحِيْلَة[3]، ومعنى ﴿تُصۡرَفُونَ﴾ في الآية: تستجيزون العدولَ عنِ الحقّ الظّاهر، وتقعون في الضّلال[4].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

مَن بَعُدَ عن الله بَعُدَ الله عنه

مِثل ما ثبتَ أنَّ اللّه تعالى هو الرَّبُّ الحَقّ، وأنّه ليس بعدَ الحقِّ إلّا الضَّلال، ثبتَ أيضًا الحُكْمُ والقضاءُ منه سبحانَه على الَّذين فَسَقوا عن أَمره، وعَموا وصَمّوا عنِ الحَقِّ، أنَّهم لا يؤمنون به؛ لأنَّهم إن يَروا سبيلَ الرُّشْدِ لا يتَّخذوه سبيلًا، وإن يروا سبيلَ الغَيِّ يتَّخذوه سبيلًا[5].

(1) المراغيُّ، تفسير المراغيّ: 11/99.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صرف).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (صرف).
(4) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 6/57.
(5) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/65.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَة بَدْءِ الآية بالفاء ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾، وأَهمّيتُها في الوصل:

جاءتِ الفاءُ في بدايةِ الآية؛ لتكونَ صِلَةَ الوصل بينَها وبينَ الآيةِ التي قبلَها: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، ولِتُفيدَ التَّفريعَ على الإنكار الذي في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، فالمُفرَّعُ مِن جملةِ المَقول[1]، وكأنَّ الكلامَ متواصلٌ في الآيتين، أي: يأمرُ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ أن يطلبَ منهم أن يكونوا مِنَ المتَّقين، وأن يخبرَهم أنّ الذي يفعل هذا كلَّه مِن رزقٍ وإحياءٍ وتدبيرٍ إنَّما هو اللّه ﷻ، وأنَّه هو سبحانَه الرَّبُّ وَحْدَه حقًّا وصِدقًا، ولا ربَّ سِواه، والوصل بالفاء لتعقيب البيان المؤكِّد لصفات الجلال والجمال والكمال في الآية السّابقة[2].

اللّه هو الرَّبُّ وَحْدَه حقًّا وصِدقًا، ولا ربَّ سِواه

هنا يأتي جمالُ التَّعبير القرآنيّ، فحيث ينفع الوصلُ يكون الوصل، وحيثُ ينفع الفصلُ يكون الفَصْلُ، فالفاء تحمل في طيّاتها معانيَ كثيرةً، وأسرارًا عديدة، وصَدقَ اللّه عندما قال: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾، فأُحْكِمت كلماتُه، وأُحْكِمت حروفُه، وأُحْكِم كلُّ شيء فيه.

بلاغة الفَذْلَكة في الآية:

أجمَلَ البيانُ الإلهيُّ في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ المعنى المرادَ في عبارةٍ موجزةٍ، بعدَ بسْطِه في الآية السّابقة؛ ليكون هذا الإجمال تدليلًا على ما تقدّم؛ أي: ذلكم الذي اعترفتُم باتّصافه بالنُّعوت المذكورةِ مِنَ الرّزق، ومُلْكِ السّمع والأبصار، وإخراجِ الحيّ مِنَ الميّت، وإخراجِ الميّت مِنَ الحيّ، وتدبيرِ الأمر، إنَّما هو اللّه ربُّكم الحَقّ، أي: المربّي لكم بنِعَمِه، والمُدَبِّرُ لأموركم، الحَقُّ الثّابتُ بذاته؛ لأنَّه هو الحيّ القيّوم، الحيُّ بذاته، المحيي لغيره، القائمُ بنفسه، المقيمُ لغيره[3].

الذي له الجلال والإكرامُ، هذه هي قُدرتُه وأفعالُه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/158، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3561.
(2) المطعني، التَّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 2/46.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/142، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/293، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5914.

بلاغة استخدام اسم الإشارة في: ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾:

التَّنبيهُ إلى أنَّ نعمه ومواهبَه مِـنَ الـرّزق والخَلْق والتّدبير تـنـطِـقُ بأحقيّة أُلوهيَّتِه وربوبيَّتِه

اسمُ الإشارة (ذا) في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ عائدٌ إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾؛ للتّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليه جَديرٌ بالحُكم الذي سيُذْكر بعدَ اسم الإشارة، وهو الحَقُّ الثّابتُ الرُّبوبيَّةِ المستوجِبَةِ للعبادة، لا أصنامُكم المربوبةُ الباطلة، مِن أَجْلِ الأوصافِ المتقدّمَةِ على اسم الإشارة، وهي كونُه الرّازقَ، الواهبَ الإدراكَ، الخالقَ المدبرَ[1]. فضلًا عمّا فيه مِن بيانٍ لعلوِّ شأنه جلّ في عُلاه[2].

وفي مجيء اسمِ الإشارة بالجَمع إيماءٌ إلى أنَّ الحُكمَ الذي يأتي بعدَه مُعَلّلٌ بمجموعِ الأوصاف المتقدِّمَة[3]، وكذلك يمكن أن يُفَسَّرَ الخطابُ في اسم الإشارة للجمعِ؛ لأنّه لا يخاطَب به النَّبيُّ ﷺ وَحْدَه، إنَّما يُخاطَبُ به النّاسُ أجمعين، وخصوصًا المشركين؛ لأنَّهم الذين أَقرّوا بالخَلْق وضَلّوا في العبادة.

بلاغةُ التَّصريحِ باسمِ الجلالة والإخبار عنه بالرُّبوبيَّة:

تـعـريـضٌ بـالـمـشـركـين وأربـابِـهـم الباطلةِ، وتقريرٌ بـأنَّـه هـو الـرّبُّ الـحـقُّ الـمـدبّـرُ المُحْسِنُ

جاء الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ صريحًا ومنطوقًا به، وليس مُشارًا إليه أو مُضْمَرًا؛ زيادةً في الإيضاح، وتعريضًا بقوّةِ خَطَئِهم وضَلالِهم في الإلهيّة، ولِيُقَرِّر أنَّ فاعل ذلك كُلِّه هو اللّه الحَقّ، يَحقّ له الرُّبوبيَّةُ والأُلوهيَّة[4]، ولأنّه موقفُ مَهابةٍ وتعظيمٍ وانتصارٍ للحَقّ وحُجَجِه، فناسَبَه ذِكْرُ الاسمِ الأعظم الجامع لكلّ صفات الجلال والجمال والكمال؛ تربيَةً لمهابته في النّفوس[5].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/53، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/158، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3562.

(2) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/46.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/158، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3562.

(4) النّسفيُّ، التّيسير في التّفسير: 8/62، الآلوسي، روح المعاني: 6/105، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/158، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3562.

(5) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/46.

وسواء كان إعرابُ الاسم الجليل صِفةً لـ ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾، و﴿رَبُّكُمُ﴾ خبرًا، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبرًا بعد خبر، أو خبرًا لـ ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾، و﴿رَبُّكُمُ﴾ بدلًا منه، أو بيانًا لـ ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفةَ الرَّبّ، أي: مالِكُكُم، فالمحصّلَة: أنَّ التَّصريحَ جاء بيانًا، وموضِحًا ومُزيلًا لكلِّ لَبْسٍ، أو تَعارضٍ، أو تَداخُلٍ، مع مُسَمّياتٍ أُخْرَى يُطْلَق عليها اسمُ الرَّبِّ أو الإله.

وكما أنَّ البيانَ الإلهيَّ مع التَّصريح بالاسم الجليل، أخبرَ عنِ الاسم الجليل بأنَّه الرّبُّ الحَقّ؛ إشارةً إلى أنّ إطلاق المشركين لفظَ (الرّبِّ) على معبوداتهم المكذوبة مِنَ اللّات والعُزّى وهُبَل وغيرِها، وكذا إطلاقُ النَّصارى المُثَلِّثين هذا اللَّفظ على المسيح عليه السلام، هو ادِّعاءٌ كاذبٌ يدُلُّ على انحرافٍ في الفِكْر، وبُطْلانٍ في الاعتقاد، فالرَّبُّ حقًّا وصِدقًا هو اللّه تعالى وَحْدَه[1].

ولذلك رَجّح القونَويّ أنْ يكون اسمُ الجلال ﴿ٱللَّهُ﴾ صفةً، و﴿رَبُّكُمُ﴾ هو الخبر، فقال: "المستَحِقُّ للعبادة هو ربُّكُم، أشارَ - أي: البيضاويّ - إلى لفظةِ الجلالِ صفةً لا خبرًا، والخبرُ ﴿رَبُّكُمُ﴾ الثّابتُ رُبوبيّتُه؛ لأنَّهُ الذي أنشأكُم وأحياكُم ورزقَكُم ودَبَّر أمورَكم"[2].

بلاغةُ توكيدِ الوصْفِ بالمصدر المؤكِّد:

وَصْفُ الرُّبوبيةِ وَصْـــفٌ لله وَحْـــدَه، وهو وَصْـــفٌ ثابتٌ وواجبٌ

مِن وجوه توجيه كلمة ﴿ٱلْحَقُّ﴾ من قول تعالى: ﴿رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أنَّها تأكيدٌ لمعنى الرُّبوبيَّة، وأنّه جاء بصيغة المصدر لِيُفيدَ الاستمرارَ والخصوصيَّةَ والاستئثارَ بهذا الوَصفِ، ونسبةَ الحَقيَّةِ له لا لغيره، ولِيُدَلّلَ على أنَّ الرُّبوبيَّةَ والعبادةَ متلازمتان تلازُمًا لا يقبل الانفصالَ، فالرَّبُّ حقًّا هو المعبودُ وَحْدَه، المنفَرِدُ بالخَلْق، وهو المنفَرِد بالعبوديَّة، فلا إلهَ غيرُه[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3562.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/453.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3561.

وقد ثَبتَ عن ابن عبّاس ﷺ أنّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا قام إلى الصّلاة من جَوْف اللَّيل قال: «اللهمَّ لكَ الحَمدُ، أنتَ رَبُّ السَّماواتِ والأرضِ، لكَ الحَمدُ، أنتَ قيِّمُ السَّماواتِ والْأَرْضِ وَمَنْ فيهنَّ، لَكَ الْحَمدُ، أَنْتَ نورُ السَّماوات والْأَرْضِ، قَوْلُكَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقاؤُكَ حَقٌّ، والْجَنَّةُ حَقٌّ، والنّارُ حَقٌّ، والسّاعَةُ حَقٌّ، اللهمَّ لَكَ أَسْلَمتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خاصَمتُ، وَإِلَيْكَ حاكَمتُ، فاغْفِرْ لي ما قَدَّمتُ وَما أَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهي، لا إِلَهَ لي غَيْرُكَ»[1]، "فقولُه: أنتَ الحَقُّ، أي: الواجبُ الوُجودِ، وأصْلُه مِن حَقَّ الشَّيءُ: إذا ثَبَتَ وَوَجَبَ، وهذا الوصفُ للّه تعالى بالحقيقة، إذ وُجودُه بنفسه لم يسبقْهُ عَدَمٌ، ولا يَلْحَقُهُ عدمٌ، وما عَداه ممّا يقال عليه هذا الاسمُ مسبوقٌ بعَدَمٍ، ويجوز عليه لحاقُ العَدَمِ، ووجودُه مِن موجِده لا مِن نفسه"[2].

نكتة الوصل بحرف الفاء في: ﴿فَمَاذَا﴾:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ عاطفةٌ، تفيد التّعقيب، أي: جاءت لترتيب ما بعدَها على ما قبلَها، أي: إذا كان اللّه هو الخالق وَحْدَه، وهو المدبّر للكون، وخالقُ القوى الإنسانيّة وغيرِها وَحْدَه، فهو الرّبُّ حقًّا وصدقًا[3]، وكلُّ معبودٍ غيرِه باطلٌ، وكلُّ منهجٍ غيرِ منهجِه خسارٌ، وكلُّ طريق غيرِ طريقِ رسولِه ﷺ ضياعٌ.

كلُّ معبود غير الخالق المدبر المحسن هو باطلٌ

بلاغة الاستفهام في: ﴿فَمَاذَا﴾:

أداةُ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ تحتمل وجهين؛ الأوّل: أداة الاستفهام (ماذا)؛ تركَّبَتْ من (ذا) مع (ما)، فصار مجموعُهما استفهامًا، وإعرابها مبتدأٌ، كأنّه قيل: أيُّ شيءٍ؟ والخبر: ﴿بَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾. الثّاني: أداة الاستفهام:

مَن يُخطِئ الحقَّ يقعُ في الضَّلال، ولا توسُّطَ بينَهما، حُكْمٌ لا يُنكرهُ عاقلٌ

(1) صحيح البخاريّ، كتاب الدَّعوات، باب: الدُّعاء إذا انتبه باللَّيل، الحديث رقم: (6317).
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/64.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3561.

(ما)، وأمّا (ذا) فهي موصولة، ويكون ﴿بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ كذلك خبر ما الاستفهاميّة، كأنّه قيل: ما الذي بعدَ الحَقّ؟ و﴿بَعۡدَ﴾ صِلةٌ كذا، كما في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾ [البقرة: 26][1].

والاستفهام في الوجهين إنكاريٌّ، بمعنى: نفي الوقوع، وأنَّ ذلك فِكْرٌ لا يتصوَّرُه ويستنكِرُه العقلاءُ، ويُفيد التّقرير والتّوبيخ، والمعنى: أنَّه ليس بعد الحَقّ، وهو أنَّ الرّبَّ المعبود هو الله وَحْدَه، إلّا الضّلال، فالأمر إمّا حَقّ أو باطل، فمَن يُخطئِ الحقَّ يقع في الضَّلال، ولا تَوَسُّط بينَهما ممّا تَدَّعون مِن أوهام بأنّهم شُفعاءُ لله، فإنّ ذلك باطلٌ في ذاته، وأنَّه سبحانه لا يتَّخِذُ عندَه شفعاءَ لا ينفعونَ ولا يَضرون، وإن لم يكونوا حجارةً، فإنّ منزلتَهم مِنَ الله هي منزلةُ غيرِهم على سواء[2].

سرّ التّعبير: ﴿بَعۡدَ﴾:

دلَّت ﴿بَعۡدَ﴾ على أنّ الإنسان إذا تجاوز الحقّ وتخطّاه - أيَّ حقٍّ كان - وقع في الضّلال، فيُفْهَم منه أنَّ مَن تجاوز عبادةَ الله تعالى التي هي حَقٌّ مخصوصٌ وقعَ في الضَّلال الخاصّ، وهو عبادةُ غيرِ الله تعالى، إمّا على الانفراد وإمّا على الاشتراك، فإنّ عبادة الله تعالى مع عبادة غيره، هي عبادة غيرِه فقط، وبهذا البيان: ظهر ارتباط هذه بما قبلَها، وكذا الكلامُ في سائر الحَقّ المخصوص، فمن تَخطَّى ذلك الحَقَّ، وقع في الضَّلال الذي كان في مقابله[3].

مَن تجاوَزَ حَقَّ الله - وهو عبادته - وقعَ في الضّلال، وهو عبادةُ غيرِه

بلاغة الاستعارة في: ﴿بَعۡدَ﴾:

﴿بَعۡدَ﴾ هنا مستعملة في معنى (غير)، باعتبار أنّ المغاير يحصلُ إثْرَ مغايره وعند انتفائه. فالمعنى: ما الذي يكون إثْر انتفاء الحقّ؟

تصويرُ المعنى للقارئ كأنّه ينظرُ إلى الحَقّ، فيُنْقَشُ معناه في قلبه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/53.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/53، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3562.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/453.

واستعمل البيانُ القرآنيُّ كلمةَ ﴿بَعۡدَ﴾؛ ليعطيَ تصويرًا بديعًا للسّامع؛ لأنَّ ﴿بَعۡدَ﴾ التي فيها معنى الزّمانيّة والمكانيّة يتحقّق فيها البُعدُ الزّمانيّ والمكانيّ عند الذي اتّخذ الضّلال، وسلك مسالِكَه، وكأنّه باتّخاذه الضَّلال منهجًا قد ابتعدَ عنِ الحَقّ في زمانه ومكانه، وكذلك معَ الاستفهام الإنكاريّ الذي ابتدأت به الجملة، وعقَّب بعدَها بإلّا التي تُفيد الحَصْر، وهذا المعنى لا تُعْطيه كلمةُ (غير).

فاستعارةُ ﴿بَعۡدَ﴾ لمعنى (غير) على سبيل الاستعارة التَّبعيّة؛ لأنَّ مَن تجاوز الحَقّ ارتمى في وادي الضَّلال[1].

براعة العدول إلى إظهار الحقّ دون إضماره:

غايةُ إظهارِ كلمةِ الحقّ تقريرُه وبيانُ عِظَم شأنِه بمقابلَتِه بضِدِه

إنّ النّاظر في الآية ربما يعتقد أنّ مجيء كلمةِ الحَقّ في قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ يُغني عن تكرارها ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ بأن يقول: فماذا بعده إلّا الضّلال؟ لكنَّ البيان القرآنيَّ عَدلَ إلى إظهار كلمة الحَقّ دون إضمارها؛ لأمرين:

الأوّل: مراعاةً للسّياق والسّباق؛ لأنَّ الآياتِ قبلُ وبعْدُ تتحدّث عنِ الحقِّ بكلّ أبعاده وإطلاقاته، ويُقابَلُ به الباطلُ بكلِّ طُرقِه وضَلالاتِه، فكان الأبلغَ أن يُظهِر الحقَّ مِن حيثُ اللَّفظُ ومِن حيثُ الكلمات التي ترافِقُه والحُجَجُ، والآياتُ الدّامغة التي يحاجُّ بها القرآنُ المشركين، وذلك زيادةً في تقريره وبيانِ أهميَّته، ومُراعاةً لكمالِ المقابلةِ بينَه وبينَ الضَّلالِ[2]، فاللّه الحَقُّ؛ فكلُّ معبودٍ سواه باطلٌ، ورسلُه الحَقُّ؛ فكُلُّ ما يناقض ذلك باطلٌ، ووحْيُهُ الحقُّ؛ فكلُّ ما خالفه باطل، والعبوديَّةُ له هي الحَقّ؛ فكلُّ عبوديَّةٍ لغيره باطلةٌ.

الثّاني: أن يكون المرادُ بلفظة ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ الثّانيَة غيرَ الأولى، أي: الحقُّ الأوَّل هو اللّه، والثّاني هو توحيدُه، وبذلك يكون المعنى: فماذا

(1) المطعني، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/46.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/142.

بعدَ الحقِّ، وهو توحيد الله، أي: عبادة مَن هو منعوتٌ بما ذُكِرَ مِنَ النُّعوتِ الجميلةِ إلّا الضَّلال المحضُ، وهو ما عداها مِن عبادة الأصنام، وأمّا على اعتبار أنّ الحقَّ الثّاني عينُ الأوَّل، فالمعنى: فماذا بعدَ الرَّبِّ الحَقِّ الثّابتِ رُبوبيَّتُه إلّا الضّلالُ، أي: الباطلُ الضّائعُ المضمَحِلُّ، وهو الأصنام[1].

بلاغة الاستثناء بـ: ﴿إِلَّا﴾:

دلالة (إلا) بعدَ الاستفهامِ الإنكاريّ هي حَصْرُ الضَّلال بانتفاءِ الحَقّ

الاستثناءُ بـ ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾؛ أفادَ معنى الحَصْر؛ لأنّه سُبق باستفهامٍ إنكاريٍّ في معنى النَّفي، إذِ الاستفهامُ ﴿فَمَاذَا﴾ ليس على حقيقته؛ لأنَّه لا تَردُّدَ في المستَفْهَم عنه، كأنَّه قيل: ما بعدَ الحَقّ إلّا الضّلال، أو لا يكون إثْر انتفاءِ الحَقّ إلّا الضّلال؛ فالحَقّ والضّلال لا واسطةَ بينَهما، إذ هما نقيضان، فمَن يُخطِئِ الحقَّ وقعَ في الضّلال[2].

بلاغة الاستعارة في: ﴿بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾:

صورةٌ مُنفِّرةٌ لتارِكِ الحَقِّ الذي لا يتخطّاه إلّا وقعَ في شَرَكِ الضَّلال

تَكْمُنُ الاستعارةُ في قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾، في ﴿بَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ إذ إنَّ ﴿بَعْدَ﴾ فيها معنى الزَّمانيّة والمكانيّة، أي: كأنّ الحَقَّ أخذَ حَيّزًا مِنَ المكان، وصار الذي يتركُهُ، وينتقلُ إلى غيره كأنَّه انتقل مِن مكان إلى غيره على سبيل الاستعارة، وليس الحقيقةِ، بمعنى أنَّ مَن تَخطَّى الحَقَّ الذي هو عبادةُ الله تعالى، وقعَ في الضَّلال[3]. و﴿ٱلضَّلَٰلُ﴾ في الآية عبادةُ الأصنام، وإنّما سُمِّيَت ضَلالًا مع كَونها مِن أعمال الجوارح؛ باعتبار ابتنائها على ما هو ضلالٌ مِنَ الاعتقاد والرَّأي[4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/142.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/53، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/158 - 159.
(3) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل: 3/112، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/142.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 4/43.

وجهُ القَصْر في: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾:

القَصْر في قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ هو قَصْرٌ بالنَّفي والاستثناء، ذلك أنَّ (ماذا) استفهامٌ إنكاريٌّ غيرُ حقيقيٍّ، في معنى النَّفي؛ إذ مِن أغراضِ الاستفهام البلاغيَّةِ النَّفيُ، أي المعنى: ما يكون بعدَ الحَقِّ إلّا الضَّلال.

التَّأكيد على أنَّ المعبودَ الحَقَّ واحدٌ لا يتعدَّدُ، وضِدَّه الباطلُ

والغرضُ البلاغِيُّ مِن هذا القَصْر: هو حَصْرٌ يؤكِّد أنّه ليس غيرُ الحَقِّ إلّا الضّلال، ونفيُ أن يكون غيرَ ذلك، ويترتّبُ على هذا القَصْر أنّه لمّا كان الله هو الرّبَّ الحَقَّ؛ تَعيَّن أنَّ غيرَه ممّا نُسبت إليه الإلهيَّة باطلٌ[1].

بلاغةُ الاحتباكِ في: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾:

الاحتباكُ فَنٌّ بديعيٌّ له أغراضٌ بلاغيّةٌ، يُحدِّدُها سياقُ الكلام، وتمثَّل الاحتباكُ في قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾؛ إذ إنّ إثباتَ الحَقِّ أوَّلًا يدلّ على أنّ ما يقابِلُه هو الباطلُ الذي لم يَذْكُره، وإثباتُ الضّلال ثانيًا يدلُّ على أنَّ ما يقابله هو الهدى، والتَّقديرُ: فماذا بعدَ الحَقِّ إلّا الباطلُ؟ وماذا بعدَ الهُدى إلّا الضَّلال؟.

الاحتباكُ حُسنُ إيجازٍ في التّعبير، وبيانُ أنَّ الحقَّ والباطلَ نقيضان لا يجتمعان

وتكْمُنُ بلاغةُ هذا الاحتباكِ في حُسنِ الإيجاز في التَّعبير وجماله؛ إذ حُذِف مِنَ المتقابلَين ما دلّ عليه مقابلُه في الآخر، ولو لم يكن هناك احتباكٌ في الآية لجاءت: (فماذا بعد الحقّ إلّا الباطل، وبعد الهدى إلّا الضّلال)، فيظهر الكلامُ ركيكًا ضعيفًا، تنزَّه كلامُ ربّنا عن ذلك.

ويُفيد هذا الاحتباك أيضًا أنّ الواسطة بينَ الطّرفين المتضادَّين المتناقضين ممنوعةٌ كالعقائد، فالذي يفعل الأمور التي سبق ذكرها، مِن أحوال الرّزق والخَلْق والتَّدبير، هو الرّبّ الحَقّ، فالقول بربوبيّة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/159.

ما سواه باطل، وهو الإله الذي يُعبد بحقّ، وعبادتُه وَحْدَه هي الهدى، فما سواها مِن عبادة الشّركاء والوسطاء ضلالٌ، فكلُّ مَن يعبد غيرَه معه فهو مُشركٌ مبطلٌ ضالٌّ.

وبذلك يكون أسلوبُ الاحتباكِ قد أفاد قاعدةً من قواعد العقائد الدّينيّة وأصولِ التَّشريع والعلم، وهي: أنّ الحقّ والباطل فيهما ضِدّان لا يجتمعان، وأنّ الهُدى والضّلال ضِدّان لا يجتمعان، ولهذا الأصل فروعٌ كثيرة في الدّين والعلم العَقليّ[1].

نكتة مجيء الفاء ودلالتها في: ﴿فَأَنَّىٰ﴾:

بعدَ ظهورِ الحقِّ لا يَحْسُنُ التّأخّرُ عنِ الاعترافِ به، بل يُقْبُحُ

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ عاطفةٌ تُفيد التّعقيبَ، جاءت لترتيب ما بعدَها على ما قبلَها، والبَدءُ بها هنا يعطي سُرعةً وحركةً في توبيخِ حال المشركين، واستبعادِ واقعهم المخزي وإنكارِه، وهذه السّرعة يستشعر بها القارئ.

والمعنى: إذا كان الله هو الرّبُّ حقًّا وصدقًا، وكلُّ معبودٍ غيرِه باطلٌ، فكيف بعد هذا تُصرفون عنه وتَبتعدون؟ هل هذا يفعله عاقلٌ يُعمل عقلَه.

بلاغة الاستفهام بـ (أنّى):

دلالةُ (أنّى) الإنكارُ والاستبعادُ والتّعجّبُ من حال المشركين وواقعهم المخزي

(أنّى) في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ اسمُ استفهامٍ بمعنى كيف، تدلّ على الحال، وقد تُشْرَب معنى الاستبعاد، بحسب اقتضاء المقام ذلك[2]، والاستفهامُ بها في الآية: إنكاريٌّ تعجّبيٌّ توبيخيّ؛ أي: لإنكار حالهم وواقعهم المخزي، واستبعاده والتّعجّب منه، والمعنى: فكيف تُصرَفون وتتحوَّلون عنِ الحقّ إلى الضّلال، بعد اعترافكم وإقراركم بأنّ خالقَكم ورازقَكُم ومُدَبِّرَ أمرِكم هو الله وَحْدَه[3].

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/293 - 293.
(2) ابن نور الدِّين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 73.
(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/65.

ثُمّ إنّ في دخول أداة الاستفهام (أنّى) - التي أفادتِ الإنكارَ - على الفعل ﴿تُصْرَفُونَ﴾ الذي مادَّتُه (صرف)، دون فعل (تَحوُّلهم) عنِ الحقّ إلى الضّلال، فيه مِنَ المبالغة ما ليس في توجيه الإنكارِ إلى الفعلِ نفسِهِ؛ لأنَّ كلَّ موجودٍ لا بدَّ من أن يكون وُجودُه على حال منَ الأحوال قطعًا، فإذا انتفى جميعُ أحوال وجودِه فقدِ انتفى وجودُه على الطّريق البُرهانيّ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ المبني للمفعول: ﴿تُصْرَفُونَ﴾:

الصّوارفُ كثيرةٌ، والانصرافُ عنِ الحَقّ بَشِعٌ، والمنصرفون كَمَن لا عَقلَ له

في إيثارِ صيغةِ المبنيِّ للمفعول في قوله تعالى: ﴿تُصْرَفُونَ﴾ أمور؛ أحدها: إفادة أنَّ الانصرافَ مِنَ الحقِّ إلى الضَّلالِ ممّا لا يَصدُرُ عنِ العاقلِ بإرادته، وإنَّما يقَعُ عندَ وُقوعِه مِن جهةِ صارفٍ خارجيٍّ[2]، وهذا فيه توبيخٌ لهم؛ إذ إنَّهم لمّا عَطّلوا عقولَهم، واتّبعوا أهواءَهم أصبح حالُهم حالَ المقهورين في فعل ما هم عليه؛ لأنَّهم تابعون للهلاك المحض، تاركون للأدلّة التي لا خفاء في شيء منها، ومعلوم أنّه لا يترك أحدٌ الدّليلَ في الفيافي العَطِشَة - الذي إنْ تركه هَلَكَ - إلّا قَهْرًا[3]. وثانيها: تركيزُ الانتباه على الحدثِ ذاته، أي: المفعول وهو الانصراف عنِ الحقّ، وحصرُ الوعي فيه، فلا يتوزّع في غيره؛ وذلك لبشاعة هذا الفعل، وهو الانصراف عنِ اللّه وتوحيدِه، إلى عبادة شياطينهم. وثالثها: إفادةُ العموم، ليشمل الصّوارف كلّها، "من صارفٍ ما، كائنًا ما كان"[4]، من نفوسهم الخبيثة، أو من شياطين الإنس والجن. ورابعها: في البناء للمفعول وحذف الفاعل إشارةٌ إلى شناعة هذا الفعل، واستبعاده، لدرجة أنّه لا يكاد يوجد له فاعل يُنسَب إليه[5].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/142.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/142.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 16/459.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/114.
(5) المطعني، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/46.

وجه التّوفيق بينَ: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾، وما جاء في سورتي: المدثر، والأعراف:

الخَلْقُ دائِرون بين عدلِ الله سبحانَه وحُجَّتِه عليهم

كيف يوجَّه إنكارُ اللّه على المشركين الانصرافَ عنه والإعراضَ في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ أي: تتحوَّلون وتُعرضون عنِ الحَقّ، وقولِه: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ۝٤٩﴾ [المدثر: 49]، وقولِه: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ [الأعراف: 146]؟ مِن حيثُ أنّ الصّارف: هو مَن يَنْعَى عليهم ذلك؟

الجواب: بأنّه سبحانَه يَنْعَى عليهم إعراضَهم عنِ الحَقّ بعدَما مَكَّنهم وفتحَ لهم البابَ، ونهجَ لهم الطّريقَ، وهيّأَ لهمُ الأسبابَ؛ فأرسل إليهم رُسُلَه، وأنزل عليهم كُتبَه، ودعاهم على أَلسنةِ رُسُله، وجَعَلَ لهم عقولًا تُميِّز بينَ الخير والشَّر، والنّافع والضّار، وأسبابِ الرّدى وأسبابِ الفلاح، وجعلَ لهم أسماعًا وأبصارًا.

ولكنَّهم آثَروا الهوى على التّقوى، واستحبّوا العَمى على الهُدى، وقالوا: معصيتُكَ آثرُ عندنا مِن طاعتك، والشّركُ أحبُّ إلينا مِن توحيدك، وعبادةُ سِواكَ أنفعُ لنا في دنيانا مِن عبادتك، فأعرضت قلوبُهم عن ربّهم وخالقهم ومليكهم، وانصرفت عن طاعته ومحبّته، فهذا عدلُه فيهم، وتلك حُجَّتُه عليهم. فهو لم يصرفهم عنِ الحَقِّ، بل دعاهم إليه، وأنكر عليهم إعراضَهم، فقال: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾، وقال: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ۝٤٩﴾ [المدثر: 49].

ولكنَّه سبحانَه لمّا سَدّوا عن أنفسهم بابَ الهدى إرادةً منهم واختيارًا، سَدَّه عليهم اضطرارًا، فخلّاهم وما اختاروا لأنفسهم، وأدخلهم مِنَ الباب الذي استَبَقوا إليه، وأغلق عنهم البابَ الذي تَوَلَّوا عنه، وهم معرضون، فلا أقبحَ مِن فعلهم، ولا أَحْسنَ مِن فعله سبحانَه، فقال: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ [الأعراف: 146][1].

(1) ابن القيم، التَّفسير القيّم، ص: 314.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصّرف والإفك والكَذب:

الصّرفُ مطلقُ الرّدّ والتّحويل، والإفكُ قلبُ الحقائق بالكذب، والكذبُ نقيضُ الصدق

تتقارب هذه الألفاظُ في دلالاتها، فجميعُها تشترك في معنى رَدِّ الشَّيء وتغييره، إلّا أنّنا إذا رجعنا إلى المعنى اللّغوي لكلٍّ منها، وإلى الاستعمال القرآنيِّ نَلْحَظ أنّ بينها فروقًا دقيقة تميِّز كلَّ لفظٍ مِنَ الآخر، بحسب ما سيأتي:

(الصَّرف): رَجْعُ الشّيء، وإعمالُه في غير وجهه، كأنّه يَصْرِفه عن وَجهٍ إلى وجه، وفيه معنى التّحويل، والحَرفُ الذي تعدَّى به يوجّه المعنى، وهو: الميل والتَّقلّب والحِيلَة[1].

أمّا (الإفك): فالصّرف عنِ الأمر بالكذب والباطل[2]، وقلبُ الشّيء وصَرفُه عن جهته التي يحقّ أن يكون عليها[3]، كالصّرف عنِ الحقّ في الاعتقاد إلى الباطل، ومِنَ الصّدق في المقال إلى الكذب، ومِنَ الجميل في الفعل إلى القبيح[4]، وأُطلِق الإفكُ في الاستعمال القرآنيّ على الكذب المتعَمَّد الفاحش القُبْح، مثل: الكذب على اللّه ورسوله، ومثل: قذف المحصنات، وسُمِّي الكذبُ إفكًا؛ لكونه مصروفًا عنِ الحَقّ، ولأنّ الكاذب يُخبِر بقضيَّةٍ تُخالف الواقعَ، فيأتي بها على غير وجهها[5].

و(الكَذِبُ): خِلاف الصِّدق[6]، وكَذَبَ: أخبرَ بخلاف ما هو عليه في الواقع[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صرف)، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (صرف).
(2) الخليل، العين: (أفك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أفك)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 2/101.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 24.
(5) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 3/392، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 18/11541.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كذب).
(7) مجمع اللُّغة العربيَّة في القاهرة، المعجم الوسيط: (كذب).

فالصَّرف: يُسْتَعمل لمطلق التّحويل والرّدِّ، ولا يَلْزَم أن يكون الصّرف دائمًا هو الرّدُّ إلى الكذب أو الباطل؛ إذ قد يعني إعمالَ الشّيء في غير وجهه، ومن هنا اصطُفيَ في الآية الكريمة لدلالته على معنى: العدول عنِ الحقّ الظّاهر، والوقوع في الضَّلال، فهو توجيهٌ للعمل في غير وجهه.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»